

ماذا في روسيا السوفيتية الصراع بين البلشفية والرجعية بقلم باحث دبلوماسي كبير

يتساءل الناس عما يحدث في روسيا السوفيتية ، وما هو سر هذه المحاكات الدموية التي تترى منذ عام في موسكو ، والتي يقبض فيها على أكبر الزعماء جماعات ، ثم يعدمون بعد محاكمة مرتبة موجزة ؟ ففي الصيف الماضي قبض على عدة من الزعماء وعلى رأسهم سينو فييف رئيس الدولة الشيوعية الأسبق ، وحوكوا بتهمة التآمر على سلامة الدولة بتحريض ليون تروتسكي زعيم البلشفية النفي ، وأعدموا بعد محاكمة قصيرة ؛ ثم عقدت خلال الأشهر الأخيرة عدة محاكمات مماثلة ، حكم فيها بالموت أو السجن على عدة آخر من الزعماء البارزين مثل العلامة الفيلسوف بوخارين رئيس الدولة الشيوعية السابق ، وكارل رادك أعظم كتاب البلشفية المعاصرين ، وياجودا مدير البوليس السري وغيرهم ؛ ومنذ أسابيع قليلة امتدت يد المطاردة إلى الجيش الأحمر وقبض على عدة من قيادته وفي مقدمتهم البارشال توخاتشفسكي ، وحوكوا بسرعة مدهشة بتهمة الاتصال بدولة أجنبية معادية لروسيا وإمدادها بمعلومات عن الجيش الأحمر وعن أسرار روسيا العسكرية ، ثم أعدموا ليلة صدور الحكم ؛ وأذاعت الأنباء على أثر ذلك أن بوادر التمرد ظهرت في بعض وحدات الجيش الأحمر ، وأن الثورة نشبت بالفعل في بعض أنحاء روسيا ، وأن طائفة الكرمالين ستالين بلجأ في إخماد التذمر أو الهياج إلى أروع الوسائل ، وهكذا ؛ فما هي عوامل هذا الاضطراب الذي يتخذه البعض نذيراً بأنهب النظام السوفيتي ؟ وما هي الحقيقة وراء ذلك كله ؟

إن الثورة البلشفية التي سحقت عرش القيصرية منذ سنة ١٩١٧ ، وبسّطت على روسيا سيادة « الكتلة العاملة » ، واتخذتها ميداناً للتجربة الشيوعية ، لم تصل بعد إلى نهايتها ؛ وما زالت روسيا السوفيتية تعيش منذ عشرين عاماً في ظل نظم

ثورية تسير من طور إلى طور ؛ وهذا الصراع الذي يضطرم اليوم بين ستالين وبين جماعة من خصومه ، والذي تبدو بوادره في تلك المحاكات الدموية الزائفة ، إنما هو نذير تطور جديد في الثورة البلشفية لم تكتمل حوامله بعد ؛ وبلا حظ أن هذه الاجراءات الدموية التي يجد ستالين في اتخاذها إنما تقترن بصدر الدستور السوفيتي المسيد الذي تم وضعه في الصيف الماضي ، ثم صدر في ديسمبر سنة ١٩٣٦ . بيد أنه يجب لكي نفهم عوامل هذا التطور الأخير ، أن نرشد إلى الوراء ، لنرى كيف نشأ الصراع بين ستالين وخصومه ، وكيف أن هذا الصراع يرتبط أشد الارتباط بتطور التجربة الشيوعية في روسيا كانت الثورة البلشفية تقوم عند بدايتها على دعائم ثلاثة : الشيوعية المطلقة ، وسيادة الكتلة العاملة ، وإضرام نار الثورة العالمية ؛ وكان لنين رأس المذهب الجديد وزعيم الدولة الشيوعية الجديدة يستمد كل وحيه من تعاليم إمام المذهب وأستاذه الأكبر كارل ماركس ؛ ولكن التجربة الشيوعية لم تلبث أن اصطدمت من الوجهة العملية بمصاعب اقتصادية واجتماعية خطيرة ، ولم يلبث لنين نفسه أن اقتنع بوجوب الاعتدال في تطبيق التجربة والأخذ بسياسة اقتصادية جديدة تفعل فيها بعض المبادئ الشيوعية المتطرفة ، وتدمج فيها بعض المبادئ الرأسمالية من (البورجوازية) . وبدأ لنين بتطبيق هذه السياسة الجديدة منذ سنة ١٩٢١ ولكنه لم يلبث حتى توفي (يناير سنة ١٩٢٤) وكانت وفاة لنين في الواقع فاتحة هذا الصراع الذي تجوز الثورة البلشفية أطواره من ذلك الحين ؛ فقد تولى مقاليد الأمور بعد لنين ثلاثة من خاصة أصدقائه وأعوانه هم ستونوفيف وكامينيف وستالين ؛ ولكن قطباً آخر من أقطاب البلشفية هو ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر (الجيش البلشي) وأعظم رجل في الثورة بعد لنين كان يسهر على مصائر الثورة ويحاول أن يسير دفتها طبق آرائه ، وبينما كان ستالين وزملاؤه يتوسعون شيئاً فشيئاً في تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة ، وهي تنطوي بالأخص على الاعتراف باللكية الصغيرة ، ومهادنة الدول الرأسمالية والتعامل معها ، ومراعاة الاعتبارات الزراعية والتجارية والصناعية في الانتاج ، كان تروتسكي يعمل لمعارضة هذه السياسة ويرى أنها خيانية للثورة وللمبادئ الشيوعية الصحيحة ، وكان تروتسكي يشدد بالأخص في وجوب اضرام نار الثورة العالمية ويرى أنها هي السبيل الوحيد

على أن المعارضة القديمة التي لبث تروتسكي روحها وزعيمها لم تخمد ولم تسحق ، فقد استمر تروتسكي في منغاف في مختلف البلاد الأوروبية يشهر بقلمه ولسانه حرباً عواناً على ستالين وسياسته ، ويذكي بنفوذه القديم روح النضال في أنصاره داخل روسيا ؛ وهو الآن في منغاف الثاني بالمكسيك ، وبالغرم من محنته وشيخوخته ما يزال يشهر سهام الخصومة والنضال على عدوه ؛ ويقول التروتسكيون إن ستالين قد سحق الثورة وبدد تراث لينين ، وبسط على روسيا نوعاً من الاشتراكية الوطنية التي بسطها المتلريون على ألمانيا ، أو ببساطة أخرى بسط عليها نوعاً من الدكتاتورية البورجوازية (الرأسمالية) ، وارتكب بذلك أعظم خيانة لقضية الثورة البلشفية والثورة العالمية

والواقع أن الدستور الجديد الذي صدق عليه مؤتمر السوفيت الأعلى في ٥ ديسمبر الماضي يدلل بروحه ونصوصه على هذه الحقيقة التي يتخذها التروتسكيون محوراً للخصومة والنضال ، وهو أن الثورة الشيوعية قد انتهت ، وانتهت كذلك فكرة الثورة العالمية . ذلك أن الدستور السوفيتي الجديد يعترف صراحة بحق الملكية الفردية التي يعتبر إلغاؤها أساساً جوهرياً للمجتمع الشيوعي ؛ ويشمل الاعتراف بهذا الحق ملكية الإيرادات الناتجة عن العمل وملكية المساكن الشخصية والأثاث المنزلي وحاجات الحياة اليومية ، ويشمل أيضاً حق الميراث ؛ ويعنح حق الملكية الخاصة للطبقات المثارة في الدولة كالموظفين وأعضاء الحزب الشيوعي ، والذين حصلوا على أوصية من ذوى اللوازم والخدمات المثارة ؛ ومن جهة أخرى فإن الدستور الجديد يعترف بأن الحزب الشيوعي هو مصدر السلطات ، ويحسم الدكتاتورية التي يبسطها على روسيا في الوقت الحاضر ، ويؤيد بذلك طغيان ستالين زعيمه وسكرتيره العام ؛ ثم إن الدستور الجديد لا يعترف بجمرية الصحافة والرأي والاجتماع كحق للأفراد ، وإنما يقرر أن الدولة هي التي تكفلها وهي التي تعد الشعب بال نشرات والمصحف والخطباء وغيرهم ، وهي التي تسيطر بذلك على عقل الشعب وروحه ، وتسيره حيثما شامت

هذه هي أسس الدستور السوفيتي الجديد ؛ فأى فرق بينها وبين الفاشستية الإيطالية ، أو الاشتراكية الوطنية (الهنلرية) الألمانية ؟ إنه الطغيان الحزبي المطلق ؛ وإنه لفتاء الحقوق والحريات العامة كلها في شخص الدولة ، والدولة هي الحزب

لغانر الاشتراكية ، هد حين أن ستالين وفريقه يرون الاقتصاد على تطبيق التجربة الاشتراكية في روسيا وحدها ويرون نجاحها محققاً دون الثورة العالمية ؛ كان تروتسكي بماضيه الثوري الحافل وصدافته المؤلفة للذين ، وما من فضل عظيم في نجاح الثورة البلشفية ، ونفوذ قوى في الجيش الأحمر ، عماد الثوريين المتطرفين ومصدق آمالهم ، ولكنه لم يحسن استخدام هذا النفوذ وتوجيهه ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاع ستالين وفريقه أن يستغلوا الظروف الاقتصادية ، وأن يستمدوا في تنفيذ سياستهم على الرجال الإداريين ؛ واستمر النضال بين الفريقين يتدد ويتفاقم ، ولكن ستالين استطاع أن يقوى مركزه ونفوذه شيئاً فشيئاً داخل الحزب الشيوعي وخارجه ، وأن يعمل على إضمار خصومه وتسفيه ممارستهم وسياستهم ، ولما شعر بأنه غدا هو الأقوى والأشد ساعداً ونفوذاً ، رفع القناع فجاء ، وأخذ يطارد تروتسكي وشيعته جهاراً ؛ وكان يستمد في المبدأ على مؤازرة عدة من أكبر الزعماء مثل سينوفييف وكامنيف وتومسكي وريكوف وفيرم ، فد اشعر أنه يستطيع العمل دونهم انقلب إلى مطاردهم ، فانضم هؤلاء إلى الفريق المعارض ؛ ونزل ستالين وشيعته إلى ميدان النضال ، واستطاع تباعاً أن يقضى على خصومه وأن يخرجهم من حظيرة الحزب الشيوعي الذي هو كل شيء في حياة روسيا العامة ، والذي يسيطر ستالين باعتباره سكرتيره العام على توجيهه واستخدام نفوذه وسلطانه ؛ ثم خطا ستالين خطوة أخرى ، فنفي تروتسكي وشرذ الزعماء من أنصاره ، وشتت شمل المعارضة كلها (سنة ١٩٢٩) واستأثر هندئذ بكل نفوذ وسلطة وغدا سيد روسيا وزعيمها القوي ، وأخذ يوجهها في الطريق الجديد الذي اختاره لها ؛ فوضع مشروع السنوات الخمس لتنظيم الإنتاج الروسي ، وهو المشروع الذي قلده فيه ألمانيا وإيطاليا بمد ، وعمل على التقرب من الدول الغربية ، وكان من أثر هذه السياسة أن انضمت روسيا إلى عصبة الأمم ، وتفاهمت مع فرنسا تفاهماً انتهى بمقد الميثاق الروسي الفرنسي ؛ وجد ستالين في تسليح روسيا ولاسيما منذ قيام الوطنية الاشتراكية (الهنلرية) في ألمانيا حتى غدت اليوم أقوى دول القارة في التسلحات البرية والجوية ، وبذلك اجتنبت روسيا عزلتها السياسية القديمة ، وانجذت مكانتها في السياسة الأوروبية العامة إلى جانب الكتلة الديمقراطية ، وأنجحت عاملاً حاسماً في التوازن الأوربي